جورج البهجوري: يرسم وجوها مثل قصة حب خاطفة:

بيكاسو اقتبس من أساليب الفن المصري القديم واخطأ في عدم زيارة مصر باريس لا تجعلك مشهوراً ولا غنيا لكن تعطيك الإلهام والابداع!

ابوظبي ـ «القدس العربي»

ـ من جمال المجايدة:

الحديث الى الرسام التشكيلي المعروف جورج البهجوري، لا يخلو من الفكاهة فالرجل الى جانب موهبته الفذه في الرسم، يحمل خفة دم شديدة الفكاهة والنكتة المصرية لم تفارقه علي الرغم من مغتربه الباريسي الطويل.

التقيته على هامش معرض حوار لوني في قصر الامارات بابوظبي والذي نظمه رواق البلقاء واستمر حتى 17 كانون الثاني (يناير) الجاري، وطيلة الوقت كان يتحدث عن الحب، ويبدو لي ان جورج البهجوري البالغ من العمر 70 عاما، يعيش قصة حب متجدد دائما مع وجوهه العديدة التي يرسمها ويعيش ايضا قصة حب مع عاشقي فنه الذي يميل الى التجريد الرمزي العميق.

يقول لي ان الوجوه التي يرسمها يشتاقها كل يوم لانه حين يرسم وجها ما فانه يذهب الى ماهو اعمق مما يراه في الواقع، وهو كما يقول يشبه تلك الحالة في الوصف الحب اللامرئي الذي يسكن القلب دون ان يراه الاخرون وتحس به المعشوقة فقط.

البهجوري قال انه ينتمي لصعيد مصر وبالتحديد لقرية بهجورة التابعة لمحافظة قنا. ولانه في نفس الوقت ينتمي الى الاقباط فإنه يعد واحدا من الذين يحملون احساسا قويا بالانتماء فنيا الى الثقافة الفرعونية التي بلغت ذروتها في فنون النحت والرسم كما تشهد محتويات المعابد المنتشرة في معظم محافظات صعيد مصر، وكأنه يقصد التنبيه إلى ان الوراثة عامل مهم في ظهور الموهبة، في حين ان الموهبة تحتاج ايضا الى الدراسة والتجريب واستيعاب تجارب السابقين.

ويبدو ان البهجوري انتبه الى ذلك في كلامه عن بداياته فقد أضاف انه درس الرسم دراسة اكاديمية، واعترف بأنه عندما التحق بمجلة «صباح الخير» استفاد من تجربة صلاح جاهين وصلاح الليثي، وكل منهما كانت له خطوط تميزه وتجعل رسوماته ماركة مسجلة باسمه سواء نشرت في صحيفة أو كتاب.

وأكد انه ينتمي الى نوعية الرسامين المشاهدين، بمعنى انه يميل في رسوماته الى المشهد ومخاطبة العيون مباشرة دون الحاجة الى تعليق سواء كتبه هو او غيره من الساخرين، فالسخرية لديه تكمن في خطوط الرسم ونسبه وأسلوبه.

فلسفة البهجوري تعتمد ايضا على اسلوب الرسم من نقطة معينة، فهو يبدأ من نقطة ويرسم الوجه والعينين والشعر وبقية تفاصيل البورتريه بحيث تتصل الخطوط في النهاية بالنقطة التي بدأ منها، كما يهتم بالتفاصيل ولا يعتمد اسلوب التلخيص الذي ميز رسومات من تعلم منهم خصوصا الراحل صلاح الليثي.

مبالغات بهجوري وسخريته كانت وراء وضعه في قائمة الرئيس السابق أنور السادات السوداء بعد أن قام برسمه بأسلوب تهكمي وتم منعه خلال تلك الفترة من دخول مصر.

وبالعودة الى بداياته الاولى مع الفن يقول البهجوري: تربيت في أسرة متمسكة بالكنيسة، وأنا طفل لفتت نظري أيقونة العذراء والطفل، وظلت هذه الأيقونة في مخيلتي كأنها حقيقة وليست صورة، وظلت الهالة الذهبية حول العذراء والطفل كأنها نور الله، ومن هنا عندما كبرت قليلا قالوا إنها مرسومة، وعرفت فن الرسم. في تلك الأثناء فقدت أمي، وتخيلت أنني الطفل وأن هذه الواقفة في الأيقونة هي أمي، هذه الروحانية انعكست علي، وظلت معي حتى الآن وأنا عندي 70 سنة تلازمني وأنا أمارس كل الفنون.. الكتابة.. النحت.. الرسم. وكأني طوال السنوات السبعين أبحث عن أمي، وأجدها في كل أم.. في الشارع.. في الحارة.. الصورة تتكرر، وقد كتب عني أحد النقاد التشكيليين أنني أرسم أيقونة الشوارع.. أيقونة الرصيف.. كل أم تحمل طفلا أتخيل أن وراءها هالة ذهبية، وكلما تزيد مأساتها وبؤسها يزيد نور الذهب حولها، كأنه نور الأفق أو نور الشمس أو القمر.

ويواصل حديثه قائلا: أصبحت أتابع هذه الأيقونة، وانعكست علي في الكتابة، وصارت متعددة الجوانب: أيقونة الطفولة، أيقونة الشباب، أيقونة الهجرة، أيقونة باريس، أيقونة الجسد التي لا أزال أكتبها، وهناك كتاب جديد اسمه أيقونة شعب، فالشعب كله مليء بالإنسانية.. هذه نشأتي، وهذا مصيري.

ـ أنا ولدت بالأقصر فعلا، وأبي من بهجورة (قرية من ضواحي الأقصر)، وأجد أشياء كثيرة عندما أزور تلك الأماكن انها تشبهني، أجد نفسي أكثر، الناس هناك (حتى من لم أكن أعرفهم) جزء مني، قرص الشمس الممثل لـ«رع» في متحف الأقصر والكرنك يتعدد عندي في لوحات كثيرة، العينان اللتان تمثلان نافذتي الروح موجودتان في أعمالي، الأصابع الطويلة، رسم البروفيل الخط الجانبي الذي اختاره المصري القديم ورسمه، في كل تمثال وكل نحت بارز يظهر الخط الجانبي كأجمل خط في فن البورتريه وفي الجسم، حتى في الحركة عندما تكون هناك معركة، أو جماهير يقولون برسم خط واحد يتم تكراره، ويصبح الخط الواحد آلاف الخطوط بكل سهولة، يعكس عصر النهضة المليء بالتعقيدات، والمعني بالتركيب، ووضع الحصان على الحصان، والازدحام الى حد الاعجاز.

لوحتان للفنان (القدس العربي)

ويعترف ان ولادته في ريف الاقصر بمصر (قرية بهجورة) كانت سببا في تعلقه بالفن الفرعوني القديم / لكن التبسيط والتلقائية الموجودة عند المصري القديم موجودة إلى اليوم في أعمالي، لا أبحث عن التعقيد، لكن أنتمي للفن البدائي الفطري، حتى أن الفن الافريقي ينعكس على بعض لوحاتي، وتمنيت أن أزور افريقيا ولكن رحلتي توقفت عند جنوب السودان.

ويمضي قائلا: لحسن حظي فأنا أقيم في ضاحية فرنسية بباريس معظم سكانها سنغاليون، وصرت أرسم ملامحهم وهم يذهبون يوميا إلى أعمالهم، ولدي خمس كراسات لوجوه سنغالية، وكأنما كنت أتمنى تحقيق شيء فوجدته أمامي، وهكذا.. كنت أتخيل أنني عاشق للفن الغربي، واكتشفت فجأة أنه ليس اتجاهي، وأن الفن الغربي معجزة في الرسم أذهلتني، وتخيلت أن النجاح والمجد سوف يأتي من الغرب، لكني وجدت نفسي أرجع الى افريقيا.

ويقول البهجوري: تحققت هذه الفكرة أكثر عندما كنت من المغضوب عليهم فترة السادات بعد أن قمت برسمه بأسلوب تهكمي فوضعني في القائمة السوداء التي لا تدخل مصر مع عدد من المثقفين، وأتيحت لي فرصة المشاركة في مهرجان أصيلة بالمغرب، وأحببت الشعب المغربي جدا، ورسمته باستمتاع، وألهمني، ولدي كراسات كثيرة ضخمة عن حياة المغاربة في السوق والمقهى وسباق الحصان، كل هذا أكد لي أنني كنت مخطئا في اتجاهي للغرب مع احترامي لمعجزته في الرسم والنحت، فما استفدت منه أكثر هو المكان الذي أتيت منه.

وعن تفاعله مع الفن الغربي قال: عندما تجد فنانا يشطح ويرسم بأسلوب التجريد ويترك كل الناس الذين عاش معهم، أنا أعتبره غير ذي قيمة كبيرة، لا بد أن يخرج من القيم الانسانية المحيطة به، ومن التشخيص لهم ورسمهم، وهذا هو اتجاه فان غوخ، الأمر نفسه عند موديلياني مع نسائه، جوجان مع نسائه في تاهيتي اخذت هؤلاء وعدت للرسام الهولندي رامبرانت لأنه قمة الرسم في الغرب.

رسم على رسم

واعتبر الفنان المصري جورج بهجوري حصوله على جائزة الملك عبد الله الثاني للفنون رد اعتبار للتجاهل الذي يعانيه في مصر ويذكر ان نبأ فوزه بالجائزة جاءه بعد ساعات من افتتاحه معرضه (رسم على رسم)، يتساءل: هل أستطيع أن أقترب من آلهة فن الرسم فيصبح رسمي رسماً على رسم، كما هو في الأدب نص على نص؟ ففي هذا المعرض اعاد بهجوري رسم بيكاسو ورمبرانت وجوجان وغيرهم من أساتذة الفن في العالم، وكذلك اختار رسم أعمال من كبار الفنانين المصريين مثل محمود سعيد وعبد الهادي الجزار وحسن سليمان ومصطفى أحمد.

وسئل البهجوري عما اذا كان بعد هذه الرحلة الطويلة مع الفن قد أصبح أهم رسام تشكيلي في مصر، اجاب قائلا: إنني أعتقد أن الواحد عندما يصل لسن السبعين، تصبح نهاية أو تكملة أبحاثه في أيام الشباب وسنوات الخمسين والستين هي الحصيلة الكبيرة لمشوار عمره تقريبا خمسين سنة، ولذلك أعتبر هذه المجموعة (كليكشن بريفت)، كل فنان في التاريخ يصل لمرحلة يصر فيها على بقاء مجموعة معينة من أعماله سواء كانت الأخيرة أو قبل الأخيرة أو مجموعة معينة ضمن كل المشوار يحب أنه يحتفظ بها، لأنه مثلا هناك فكرة نواة لمتحف يحمل اسم الفنان سواء في القاهرة أو في الأردن بالذات، إنني أعتز بالأردن وأهتم به جدا لأنني عشت فيه عدة سنوات وزرته عدة مرات، منذ سنة 1970 وأنا أتواصل مع عمان، أول بلد عربي عرضت فيه أعمالي وأبحاثي في باريس، لقد كان الأردن عن طريق رواق البلقاء الذي يديره خلدون الداود وهو شخصية ثقافية فنية نشيطة جدا.

ورفض ان يكون قد حصل على الشهرة بعد هجرته الى باريس بقوله: باريس لا تعطي ولكنها لا تجعلك مشهوراً ولا تجعلك غنيا، فلا يوجد إعلام عن الغرباء الموجودين في باريس، لكن هي تعطيك الإلهام تعطيك الجو المناسب للإبداع، وأنا فهمت هذه اللعبة، وقلت إنها تضحية كبيرة لكنها تستحق المجازفة أن تستمر حياتي في باريس التي اخترتها بنفسي بدون أي منحة أو مساعدة من الدولة، ذهبت إلى باريس بعد أن حققت شهرة كبيرة في الصحافة المصرية، بعد أن أصبحت رساما معروفا، اكتفيت بهذا القدر من العمل الصحافي بما فيها فن الكاريكاتير، فن الكاريكاتير أعطاني شهرة وعلاقات بالناس جميلة جدا، لقد تخطيت أشياء كثيرة، النحت واللوحة والتمثال والرواية والنقد الفني وفن العرائس، دخلت في جميع أنواع الفنون لأن باريس توحي لك بالإبداع، لأن الجو (يخليك) دائما مستمرا في الإبداع، حياة باريس وزيارات المتاحف والغاليريهات ولقاءات المثقفين، هذا على الصعيد الشخصي، لكن على صعيد أنه مثلا أجهزة الإعلام تهتم بك أو تطلع في التلفزيون أو الصحف، هذا غير موجود.

جورج البهجوري (القدس العربي)

ايقونه باريس!

ورغم ذلك يقول البهجوري: خلال الثلاثين عاما أو أكثر التي عشتها في باريس وصلت لأن أكون فنانا شاملا، وذلك بحكم الظروف الجميلة الموجودة بباريس، نحن مجموعة رسامين من مختلف الدول تابعين لوزارة الثقافة الفرنسية، مُنحنا فيللا من ثلاثة طوابق، تهيأت فيها لكل فنان وسائل الراحة والإبداع، كل فنان له طابق ومرسم وورشة، والمكان مصمم لعمل الفنانين، من هنا بدأت موجة الانفعال والإبداع، وزي ما بيقولوا ضربة الرعد، هذه الأجواء أهلتني لأن أكون فنانا شاملا، اختلطت في هذا المكان بنحات روماني (لاجئ سياسي) فدخلت إلى عالم النحت، فأبدعت الكثير من الأعمال التي نفذتها برونز، وعندما أجدت اللغة أصبحت أحاضر بها وأكتب وأتابع نشاطات الأدباء، حيث كنت أتابع برنامجا ثقافيا لناقد شهير اسمه برنار بيفو يلتقي بالأدباء ويناقش معهم أعمالهم الجديدة، وقد كان من نتائج مشاهدتي لهذا البرنامج لعشر سنوات متواصلة فهمي لأسرار الكتابة الأدبية، ومن ثم أصبحت مهيأ للكتابة الأدبية، فأنا أريد أن أحكي وزاد عندي الحكي والبوح ولم أجد أحدا أحكي له أو أبوح له بمشاعري كغريب في باريس، فبدأت أحكي مع الورقة ليصبح عندي ثلاث روايات منها (أيقونة فلتس)، (أيقونة باريس)، كل هذا بالإضافة إلى اللوحة والجانب الساخر الكاريكاتيري الذي لم يعد كل شيء كما كان في بداياتي ويعتقد بعض الناس خاصة في مصر.

وخلص الى القول: إن موقعي في باريس عاصمة الفن أتاح لي متابعة متواصلة لكل عالم الفن خلال أكثر من ثلاثين عاما، لم يكن يقنعني كتاب أو فيلم أو صورة، لقد حرصت على أن ألتقي باللوحة الأصلية أشم عطرها وأكاد ألحس ألوانها كما حدث لي مع غوغان وفان غوخ.

تأثير بيكاسو

لقد تاثر البهجوري بالفنان العظيم بيكاسو، وقال انه اعد رسالة دكتوراه من السوربون تحت عنوان (رسوم بيكاسو علاقتها بالفن الفرعوني القديم)، وتوصل الي ان بيكاسو اقتبس من أساليب الفن المصري القديم، لكن الخطأ الذي وقع فيه أو سقط فيه أنه لم يزر مصر مثل غيره من الفنانين.

ومضى قائلا: إعجابي ببيكاسو خطير، أحب علاقاته بالنساء ورسمه لهن، وهذه موجودة عندي، لقد وجدت تشابهاً كبيراً بين حياته وحياتي، أنا أعتبره المثل الأعلى لي، هو الذي أعطاني حرية الحركة في الخط والرسم، عندما تأملت كراريسه الكثيرة المنشورة أو الموجودة في متحفه المسمى باسم الحي الثالث بباريس، وكيف أن خطه عفوي وسريع، أصبحت خطوطي أنا أيضا عفوية وسريعة.

ولد جورج بهجوري في الأقصر عام 1932، تخرج من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة وكلية الفنون الجميلة بباريس قسم الرسم، وعمل كرسام كاريكاتيري منذ عام 1953 حتى عام 1975 في مجلتي روزاليوسف وصباح الخير، ويعيش في باريس منذ عام 1975.

واقام معارض تشكيلية في مصر والأردن والمغرب وتونس وفنلندا وألمانيا والولايات المتحدة وفرنسا.

حاصل على الجائزة العالمية الأولى في الكاريكاتير عام 1985 وعام 1987 في روما.

مسرحية «سرك الدنيا» لعبد الغني بن طارة وعبد الكريم بالرشيد:

احتفالية ساخرة للانساني في مختلف تجلياته ...

تونس ـ «القدس العربي»

ـ من شمس الدين العوني:

«سرك الدنيا» عمل مسرحي لعبد الغني بن طارة اقتبسه عن مسرحية الدجال والقيامة لعبد الكريم بالرشيد وقد شارك به مؤخرا في مهرجان فضاء بتطوان للمسرح المتعدد الى جانب أعمال مسرحية اخرى من المغرب وليبيا وفرنسا واسبانيا.

الممثلون في هذا العمل المسرحي الجديد هم جمال سويد وكريم العوادي ومحمد سعيد وليلى الرزقي وأمير شاطر وقد أعدّ الموسيقى الفنان ابراهيم البهلول وساعد في الإخراج الطاهر عيسى وصممت الملابس يمينة ابراهيم وأما الاقتباس والدراماتورجيا والإخراج الطاهر عيسى لعبد الغني بن طارة.

سرك الدنيا، احتفال آخر بالحالات المتعددة التي يعيشها الكائن الانساني هنا أو هناك بعيدا عن تحديدات الزمان والمكان فالانفعالات هي المشكلة للعمل وفق تعبيرات فيها الكثير من الجنون حيث يفضي الأمر الى التداخل بين الفرح والحزن والرقص على إيقاع الالام، فالهم المسرحي في هذا العمل، ليس بناء الأحداث أو الرواية بل هو هذا التغلغل العفوي في حالات من التقلب السيكولوجي في مطلق تنويعاته وألوانه. فالشخصيات التي هي نعناعة ولقمان والدجال الطبيب وهدهود وعكاشة وخميس تسخر من حالة التردي التي يعيشها من خضع للدجل ومن أسهم في طغيان الغش والنفاق فبات الخوف سلطان قلبه.

في فضاء عميق بعمق الكون المتلاطم في الأحداث تنتشر مرافع ومنصات ومراجيح بهلوانية وكأننا في سرك، كل الأدوات تعطي امكانية القفز والتزحلق والتسلق.. قصبات معدنية تتشابك، تتلاحم.. هي تارة مدينة ضياء ونور تشع الدفء وتارة أخرى غابة معدن تصرخ ألما وجراحا وارتجافا.

وبخصوص النص في هذا العمل يقول المخرج عبد الغني بن طارة: «لقد اخترنا النص لتناسق الأفكار بين المخرج والمؤلف في سابقة كانت من أروع الانتاجات المسرحية في تونس والتي لاقت استحسان النقاد والفنانين والجمهور على حد السواء في تونس وفي الأقطار العربية، هذه السابقة هي «اسمع يا عبد السميع» والتي اكتشف فيها المخرج هذا المؤلف العبقري عبد الكريم بالرشيد وكان ذلك سنة 1983.. ويتجدد العهد مع عمل حلم المخرج بانجازه وفيه الكثير من الخبرة في الكتابة العربية الدرامية بالأساس فكرسنا وقتا وجهدا لرسم ملامح ابداعية في نص باللغة العربية الفصحى لذلك تركنا لتلقائيتنا وللمثلين مجالا واسعا للإحاطة بالنص والتلبس بمناخاته.

الدجال والقيامة نص يطرح مشاكل العصر ويتجاوزه الى ماهو رمزي لتعرية العناصر والأشياء حيث تسقط الأقنعة وتفسح المجال للسؤال بما هو وجداني وجودي في كون مليء بالدجل والنفاق حيث تنحسر الأشياء القيمية لتتراجع الحكمة والأخلاق. يأتي الدجال فيجد قوما يغطون في سبات عميق فيكون المشهد متمثلا للخراف والذئاب والوحوش الناهشة.

هكذا تعاملنا مع النص لامتحان الراهن وللتساؤل بحثا عن منفذ للالتحاق بالطيور الحرّة في السماء الصافية.... ان مسرحية سرك الدنيا مسرحية تبرز تلك الشخصيات المتوحشة التي تنهش بعضها داخل فضاء هو السرك في عرض احتفالي حيث اللعب رقص متكرر بين مالك ومملوك وقاتل ومقتول وتكشف الأضواء ماهو مستور في حلبة يتحدد فيها الصراع وتكاد تكون حلبة الموت.

في هذه المسرحية يلتقي مرة اخرى عبد الغني بن طارة وعبد الكريم بالرشيد في عمل يسائل الراهن الانساني في ظلّ العولمة وتداعياتها المختلفة حيث تسقط قيم لتحل محلها قيم اخرى ولكن الإنسان يظل مدافعا الى آخر رمق في سبيل الجمال والحياة والتحرّر. والمسرح هنا، حلم قديم متجدد تجدد هذا الصراع الإنساني المخيف.

تداعيات

حكايات من البر الانكليزي
الحاج منصور في لندن
يا سمي صبّي المي!!

جمعة بوكليب *

■ كنت ماراً على عجل في شارع إجوارد رود، كان الفصل صيفاً حاراً لزجاً شديد الرطوبة، والوقت على مسافة بعيدة قليلاً من أنسام المساء، حينما لمحته جالساً، خارج مقهى عربي، على كرسي وبجانبه منضدة يتربع وسطها إبريق شاي وكأس زجاجية مليئة بالشاي المنعنع. كان يدخن الشيشة بمتعة، مرتدياً قميصاً أبيض، نصف كم، وسروالاً إفرنجياً، وحذاء جديداً، ورأسه عارية دون طاقية أو معرقة، بشعر خفيف جداً أبيض. وقفت وسلمت عليه فرفع رأسه نحوي وحدّق في وجهي من خلال عينين ضيقتين للحظة، ورد السلام بشكل جعلني أحس أنه لم يتعرف إليّ. قلت له: «أنا جمعة ولد الحاج عمر صاحبك»، انتفض من كرسيه بمجرد سماعه لما قلت، كمن صعقه تيار كهربي، ثم وهات يا أحضان وهات يا بوس، وهو يردد بصوت مستثار: «ساعة سعيدة ساعة غرة». هدأت قليلاً من استثارته، وجلست على كرسي بجانبه وبدأنا حديثاً لا أعرف كيف ولا من أين بدأ، أو كيف انتهى. كنت مثله فرحاً جداً بلقائه حد الاستثارة، لأنه جار قديم طيب المعشر وصديق ودود لوالدي، ورؤيته في لندن فجأة وعلى غير موعد بدت لي وكأني التقيت طفولة كنت أظنها لا ترجع.

عرفت منه أنه جاء لزيارة ابنته الكبرى المتزوجة بطبيب ليبي، تحصل على فرصة للعمل في لندن بإحدى المستشفيات منذ أكثر من سنتين، وهذه المرة الأولى التي يزوره فيها الحاج منصور رفقة زوجته الحاجّة مريومة. سألته: هل أعجبته لندن؟ قال: «الله لا تحرم منها مؤمن».

ضحكت بصوت عال حتى شعرت بعينيّ مغرورقتين بالدموع. دفعت للنادل فاتورة الحساب وأخذت الحاج منصور من يده، وبدأنا نسير معاً. عاتبته على عدم اتصاله بي لدى وصوله لندن، فتذرع بأعذار بدت لي واهية جداً، وعلمت منه أنه لم يبلّغ حتى والدي بمجيئه إلى لندن، لأن السفر، حسب قوله، تم على عجل، ولم يجد وقتاً لإبلاغه. قلت في نفسي: «فوّت وما تعدلش»، وظللنا نتمشى على طول إجوارد رود وهو يحكي لي عن أحوال جيراننا واحبائنا. كلما سألته عن أحد من رفاقه يرد عليّ بنفس الرد: «أعطاك عمره»، اكتشفت أيضاً أن الميتين جميعاً توفوا نتيجة الإصابة بمرض السكري أو ضغط الدم أو كليهما. قال لي الحاج أنه شخصياً يعاني من الإصابة بالمرضين، وحين سألته لماذا لم يتوقف عن التدخين، وكيف له أن يدخن الشيشة؟ قال لي: «يا ولدي ليلة قبرك ما تبات برّه، واللي في عمري وعمر بوك شنو ما زالّه؟». عرضت عليه أن نتعشى معاً، فوافق دون تردد. دخلنا مطعماً قريباً وجلسنا حول منضدة. قرأت عليه قائمة المأكولات المتوفرة وسألته عما يشتهي منها، ففوضني أن أختار نيابة عنه، ولمّا نبهته إلى حقيقة مرضه وربما يكون في حاجة إلى نوع معين من الأكل، قال لي: «ما تعدلش»، فعملت بالنصيحة حرفياً. استمر العشاء والحديث أكثر من ساعتين، ثم أصر الحاج على الذهاب إلى المقهى: «باش يقعّد رأسه بشيشة»، فغادرنا المطعم وسرنا جنباً إلى جنب على الرصيف المزدحم في طريقنا إلى نفس المقهى الذي التقيته فيه. علّق الحاج على ازدحام الشارع بالعرب، قائلاً بشيء من الضيق: «الله يكثّر أمة محمد»، وسمعتني أقول بصوت مسموع: «آمين». ونحن نقترب من المقهى، رأى رجلاً لا يتجاوز الاربعين من العمر جالساً على الرصيف وبجانبه يرقد كلب متسخ وهزيل، باسط ذراعيه على الأرض. كان الرجل يقرأ جريدة باهتمام، يرتدي ملابس رثة، ويضع قبعة سوداء متسخة على الأرض بها بعض الملاليم. سألني الحاج بفضول عنه، قلت له أنه مشرد يعيش وينام على الأرصفة، متسولاً. رأينا امرأة مسنّة تقترب من الرجل ثم انحنت مداعبة الكلب، وتحادث الرجل بلطف، ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها بعض القروش وألقتها في القبعة المفترشة الأرض، وداعبت الكلب مجدداً وانصرفت محيية الرجل المتسول ومتمنية له مساءً طيباً. عاد المتسول إلى الانهماك في قراءة الجريدة وواصل الكلب نومه. علّق الحاج قائلاً: «تقول مدير في مكتبه، ناقص يخدّم معه سكرتيرة!!». اتجهنا نحو المقهى، ولما كانت المناضد المفروشة خارج المقهى مشغولة، اقترحت على الحاج أن نذهب إلى مقهى آخر، إلا أن الحاج أصر على الجلوس في نفس المقهى متذرعاً بجودة الشيشة. وافقته على مضض لأنني أبغض من كل قلبي مقاهي الشيشة، لأن أجواءها خانقة وتجعلني أحس وكأنني جالس في غرزة حشيش. طلبت له شيشة، وإبريقا من الشاي المنعنع لنا معاً، وواصلنا حديثنا. جاء النادل بالشاي، ثم أحضر الشيشة، وبدأ الحاج عملية المص بآلية ومتعة. حاولت أن أشغله بالحديث عن زوجته وأولاده إلا أنه ظل يرد بإيجاز المكره على الكلام، فالتزمت السكوت، وواصل هو التدخين بشراهة مدخن مدمن ومخضرم. تمنيت لو يحكي لي قليلاً على ذكرياته مع والدي أيام الشباب، وكيف كانا يشتغلان في (البورت) معاً. تمنيت لو أنه يفتح لي فرجة في قلبه المتآكل بالنيكوتين لأرى والمس شيئاً من طراوة أيام جففها الوقت واكتسحها النسيان وباتت كخرابة مهجورة. تمنيت لو الحاج منصور يهديه ربي ويفكنا من تدخين هذه الشيشة اللئيمة، حتى يمكننا مغادرة المقهى وجوّه الخانق، والخروج إلى الشارع وتنفس طزاجة أنسام الليل، عقب نهار ساخن وشديد الرطوبة، وباعث على الضجر والملل، يجعل المرء يتمنى لو كان بمقدوره سلخ جلده. واصل الحاج عزفه المنفرد بدون هوادة، فقررت المغادرة. قال الحاج مستغرباً: «أقعد ما زال عندنا وقت»، قلت له انني لم أعد قادراً على احتمال الجو الخانق. ضحك الحاج وهو ينفث الدخان من منخريه: «لندن خلاتك رطب معادش تقدر تتحمل». أنزعجت جداً من سخريته، ونهضت واقفاً عازماً على المغادرة. اتجهت إلى النادل ودفعت له الحساب، ثم رجعت إلى الحاج مودعاً. رفع وجهه محدقاً في عينيّ بشيء من الزعل والعتاب. قلت له سأعطيك رقم هاتفي ويمكنك أن تهاتفني غداً إن شئت. أخرجت قطعة ورق صغيرة من جيب سترتي وكتبت رقم هاتفي واسمي على الورقة وأعطيتها إياه، فأخذها مني وحدّق فيها قليلاً، ثم قال: «لكن من بيروّح بيّ للحوش؟» قلت له: «زي ما جيت بروحك تروّح بروحك». قال لي أنه لم يأت للمقهى لوحده، وأن صهره الطبيب تعود أن يأتي به في السيارة ثم يتركه في المقهى ويعود لأخذه بعد انتهائه من العمل. وقال أيضاً أن لقائي به أنساه ذلك، وأن الدنيا ليل، ولا بد أن صهره حضر إلى المقهى ولم يجده. وأكد مجدداً أنه لا يعرف الطريق إلى البيت ولا يعرف حتى رقم الهاتف!!! وجدتني أردد في نفسي: «يا حصلتنا في مسعودة وحصلة مسعودة فينا». أعترف أنني أصبت بشيء من الإرتباك، ولم أدر ما أفعل. قلت له بأنه ليس أمامه سوى العودة إلى بيتي، إلا أنه أصرّ على أن آخذه إلى بيت صهره لأن عدم رجوعه سوف يؤدي بالحاجّة زوجته وبابنته وبصهره إلى الجنون. طلبت منه أن يذكر لي إسم المستشفى الذي يعمل به صهره، فقال أنه لا يعرف. أدركت أن الليلة لن تفوت على خير، ولم يبق امامي سوى حل واحد. اتجهت إلى النادل وطلبت منه دليل لندن للهواتف. سألت الحاج عن اسم صهره وتخصصه الطبي فذكرهما لي، وأخرجت هاتفي المحمول وبدأت في الأنتقال من مستشفى إلى آخر، وكأنني عامل بدالة هواتف. قرابة الثانية صباحاً، وصل صهره بالسيارة ووقف قبالة المقهى، حيث كنت أنا والحاج في انتظاره. سلّمت على صهره وحكيت باقتضاب ما حدث وسلمته الحاج منصور، وودعتهما، وانصرفت.

حين وصلت إلى بيتي، منهكاً متهالكاً، وجدتني اردد بصوت عال: «شعقة يا داود ما عاد نعاود».

* كاتب من ليبيا يقيم في لندن